٢ فخامة اللورد . . القنصل

أول سؤال يخطر على البال :

– ما هى أهمية الوثائق البريطانية ؟

– ماذا يعنى مصر إذا كتب المندوب السامى البريطانى فى القاهرة إلى وزير خارجيته فى لندن يقترح . . وماذا يهم مصر . . إذا استجاب الوزير البريطانى إلى هذا الاقتراح . . ؟

وإذا كان للمندوب السامى نفوذ من أى نوع فى عهد الاحتلال – وقبل توقيع معاهدة ١٩٣٦ – فلابد أن الموقف تغير بعد توقيع هذه المعاهدة . . وبعد أن أصبح المندوب السامى البريطانى سفيراً . . يتقدم غيره من السفراء . . !

* * *

ولكن القانون والمعاهدات شىء . . والواقع شىء آخر . . مختلف تماماً . .

إن قصة المندوبين الساميين البريطانيين فى مصر . . هى بعض قصة مصر كلها فى أثناء الاحتلال . . أو بعبارة أدق هى قصة الوزارات وتعاقبها فى مصر .

وليس الهدف أن نقدم تاريخ هؤلاء المندوبين . . أو الوزارات المصرية . . أو الزعماء الذين قاوموا مندوبى بريطانيا أو تفاوضوا معهم ، أو امتثلوا واستسلموا لأوامرهم . . بل إن الهدف الوحيد أن نعطى صورة كاملة تبين كيف كانت تحكم مصر فى عهد كل مندوب . . حتى نحدد العلاقة بين أجهزة الحكم الثلاث فى مصر . . الملك . . والوزارة . . والمندوب

السامى . . وكيف تطورت هذه العلاقة حتى وصلت إلى ذروتها يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ .

* * *

كل مندوب سام جاء إلى القاهرة . . كانت له مهمة محددة يحققها . . ثم ينقل . . !

. . ومع أى تغيير فى سياسة الحكومة البريطانية ينشأ عن انتخابات فى بريطانيا وتولى حزب جديد الحكم . .

. . ومع أى تبديل فى سياسة بريطانيا نتيجة للعبة السياسية الدولية والتوازن الدولى . . كان لابد من استبدال المندوب السامى البريطانى فى مصر . .

. . يصل المندوب الجديد إلى القاهرة . .

ويفرح المصريون لأنهم تخلصوا من سلفه . . ويعلقون آمالا كبيرة على القادم حديثاً من لندن . .

. . يظن المصريون أن بريطانيا بتغيير المندوب السامى قد اقتنعت بموقف مصر ، أو ، على الأقل ، استجابت للمطالب الوطنية والنضال السياسى الشعبى أو الحزبى .

. . ويهدأ الكفاح الوطنى فى انتظار تنفيذ بريطانيا لسياستها الجديدة . .

وينشغل المصريون بالصراعات الحزبية والتنافس على مقاعد الحكم .

وتظهر – تدريجيا – سياسة المندوب السامى . . أو السياسة البريطانية التى جاء هذا المندوب لتنفيذها . . وتتضاءل – مع الزمن – آمال مصر فى رجل بريطانيا ، وفى الإنجليز .

. . وتنشط الحركة الوطنية . . ويعلو المد الشعبى .

* * *

وتلجأ لندن لأسلوبها المتكرر . المعاد . . .

يتغير رجل بريطانيا فى مصر . . ولكن هدف بريطانيا فى استمرار الاحتلال لا يتغير أبداً . .

. . والزعماء المصريون لا يعرفون . .

أو ربما يدارون . .

وفى كثير من الأحيان يناورون . . أو يأملون . .

وتستمر لعبة بريطانيا فى مصر أكثر من سبعين عاماً . .

ويطول الاحتلال البريطانى لمصر أكثر من سبعين عاماً . .

ويظل رجل بريطانى متغير الاسم والسياسة ولكن ثابت الهدف ، يلعب على المسرح المصرى ليشغل الناس ويثير اهتمامهم . ويحاول إلهاءهم عن الخطة البريطانية . .

ويكون المتفرجون على هذا المسرح البريطانى . . من ساسة مصر . . أما الشعب فإن ضل الطريق حيناً وراء الزعماء . . فإنه فى نهاية الأمر يهتدى إلى آماله . . ويعرف أعداءه . . ويتخذ نحو أهدافه . . طرقاً جديدة . .

ونتابع هذه الأسماء . . ونقلب صفحات التاريخ . .

كرومر . . جورست . . كتشنر . . هنرى مكماهون . . وينجت . . ألنبى . . نيفيل هندرسون - المندوب السامى بالنيابة - جورج لويد . برسى لورين . موريس بيترسون - وهو مجرد نائب للمندوب السامى . ولكن كان له دور - وأخيراً السير مايلز لامبسون أو اللورد كيلرن .

٩ أسماء بريطانية خلال ٦٤ سنة .

وفى مقابل هذه الأسماء نجد ٦٠ وزارة تشكل فى مصر . . فكأن عمر الوزارة المصرية عام تقريباً ! وفى عهد كيلرن بالذات يقل عمر الوزارة عن العام !

* * *

ولنبدأ بالسير إيفلن بارنج . . أو اللورد كرومر رجل بريطانيا الأول فى مصر . .

وكرومر يستحق سطوراً أكبر من غيره . . فقد أمضى فى مصر ٢٤ عاما . . وهى أطول مدة أمضاها دبلوماسى بريطانى فى القاهرة . . وفى العالم كله ويليه من حيث المدة . . لامن حيث الترتيب الزمنى . . اللورد كيلرن الذى قضى هنا ١٢ سنة !

جاء كرومر بعد الاحتلال البريطانى . . ليحكم مباشرة برغم وجود الخديوى توفيق على رأس السلطة الشرعية فى مصر .

وكان كرومر مجرد قنصل عام لبريطانيا . . ومع ذلك فهو الحاكم الفعلى . .

. . عندما يزور إقليماً تكتب الصحف المصرية «ظهر جناب اللورد كرومر» . . وأحياناً ظهر فخامة اللورد . . القنصل !

وهو يخاطب الجماهير فى اجتماعات عامة . . وينصح العمد فى اجتماعات عامة . . وكذلك الأعيان . .

. . ويحكم مصر كلها عن طريق رجاله من الإنجليز الذين «نثرهم ونشرهم» فى كل الوزارات .

* * *

وزارة المالية يحكمها المستشار المالى البريطانى .

والداخلية فيها المستشار البريطانى . . السيرألدون جورست . . الذى يخلف كرومر ١٣

سنة فى منصب القنصل العام .

والأشغال . . لها وكيل وزارة بريطانى .

والحقانية لها مستشار قضائى . . وبعض القضاة أيضاً من الإنجليز .

والجيش على رأسه السردار البريطانى وله مساعدون من الضباط الإنجليز .

والبوليس تحت قيادة المفتش البريطانى .

. . ووصل الأمر بكرومر إلى تعيين ياور إنجليزى للخديو توفيق .

* * *

وهو يعارض – علناً – فى الجلاء . .

قال :

« كان وعد بريطانيا بالجلاء . . قبل أن تعرف الحالة فى مصر ، فلما عرفتها علمت أن وعدها فى غير محله ، وأن تنفيذه يؤدى إلى أضرار جسيمة » .

وعندما ينقل ويكرمه المصريون يقول فى حفل تكريمه :

« الاحتلال البريطانى يدوم إلى ما شاء الله . . وما دام الاحتلال باقياً فالحكومة البريطانية مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الإدارة المصرية » . .

وبهذه العبارة اعترف كرومر بأنه – وحده – المسئول عن كل شىء فى مصر . . قبل الخديو . . وقبل رئيس النظار . . أى رئيس الوزراء . .

وبرغم ذلك كله يشترك المصريون فى تكريم كرومر . . ونجد بين اللجنة المنظمة لحفل التكريم أسماء مصرية كبيرة . . مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء ، وسعد زغلول – زعيم حزب الوفد فيما بعد – ومحمود سليمان باشا – والد محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين . . !

وإذا كان سعد هنا بين اللجنة . . فيجب أن نفطن إلى أن حياة سعد كانت مرحلتين اعتدالا ثم اقتناعاً بضرورة الثورة ضد الإنجليز . . وكانت هذه اللجنة خلال الفترة الأولى المعتدلة من حياة سعد . .

* * *

وعندما يعلو مد الحركة الوطنية . . يرفع كرومر سلاحاً مخيفاً ليعبئ وراءه الإنجليز . . وأوربا كلها . . يقول .

« التعصب مخيف على شواطئ النيل » .

* * *

وهو يحرم المصريين من التعليم . .

فى سنة ١٨٩٠ كانت ميزانية التعليم لمصر كلها ١٨ ألف جنيه .

وخلال تسع سنوات من عمر الاحتلال ، ومن عمر كرومر فى مصر . . لم يوافق كرومر – وفى يده الميزانية – إلا على اعتماد مليونى جنيه للتعليم والصحة . . بسنبة ١,٥٪ من الميزانية العامة . .

ويحارب اللغة العربية بكل الطرق . . وفى آخر ميزانية أقرها كرومر لم تزد ميزانية التعليم عن ٣٧٤ ألف جنيه . . !

* * *

والـ ٢٤ سنة التى عاشها كرومر فى مصر أعطته الفرصة ليستنزف الاقتصاد المصرى لصالح الإنجليز ويتعقب المصالح المصرية . يهدمها لحساب الإنجليز . . !

ثار السودان فأعاد كرومر فتحه بأموال مصر وجيشها . . وأرغم مصر على أن توقع معاهدة ١٨٩٩ مع بريطانيا . . لامع السودان . . ولا تعلن النصوص إلا بعد التوقيع .

* * *

ويضع كرومر إمضاءه على المعاهدة نيابة عن بريطانيا ، ويوقعها معه باسم مصر بطرس غالى باشا . . وزير الخارجية المصرية الذى يتولى بعد ذلك رئاسة الوزراء . . وبرأس المحكمة المخصوصة فى دنشواى . . ويغتاله – أى بطرس غالى – المصريون . . !

ويختار كرومر حاكماً للسودان اللورد كتشنر . . ليستكمل مهمة فصل السودان عن مصر . .

. . ويكون كتشنر بعد سنوات قنصل بريطانيا العام فى مصر . . بعد كرومر . . وبعد جورست . .

وحكاية كرومر مع مصر . . طويلة . . ومريرة أيضاً . .

يوم مات ضابط بريطانى بضربة شمس فى دنشواى . . أمر كرومر بعقد محكمة عسكرية فى القرية لمحاكمة ٢١ من أبناء القرية . .

وفى ٣ أيام كانت المحكمة قد حاكمت وأعدمت ٤ وحكمت بالمؤبد على اثنين وبـ ٥٠ جلدة على ثمانية . . وتنفذ الأحكام داخل القرية أمام الزوجات والأبناء . . والآباء . . فخطة القنصل العام بالنسبة للشعب هى . . القمع . . !

وخطته بالنسبة للخديو . . الشاب الجديد عباس حلمى الثانى الذى ولى بعد توفيق . . الإذلال . . !

صبر عباس حلمى الثانى على رئيس وزرائه مصطفى فهمى باشا . . ثم بعث إليه محمود

شكرى باشا رئيس الديوان التركى ليطلب إليه أن يستقيل . .

يرد رئيس الوزراء :

- هل ذلك بالاتفاق مع كرومر؟

فيقول له رئيس الديوان :

الخديو حر فى بلاده !

ولا يصدق رئيس الوزراء ذلك فيقول :

- سأستشير أنا اللورد كرومر .

ويتعجل الخديو فيعين حسين فخرى باشا رئيسا للوزراء .

ويبعث كرومر إلى روزبرى وزير خارجيته الذى يعطيه السلطة للتصرف مع الخديو . فيعطى الخديو مهلة ٢٤ ساعة !

ويمنع كرومر نشر مرسوم تعيين رئيس الوزراء فى الوقائع المصرية .

وعندماتشكل الوزارة بعد ٣ أيام يستقيل فخرى باشا . . ويتفق الخديو وكرومر على حل وسط فيعين مصطفى رياض باشا رئيساً للوزراء ٣ شهور . . وبعد ١٠ شهور من استقالة مصطفى فهمى يعود ليبقى رئيساً للوزارة المصرية ١٣ سنة . . ولا يترك منصبه إلا بعد عام كامل من استقالة كرومر نفسه .

وتنشر الصحف المصرية قصة أول أزمة وزارية فى عهد الاحتلال . . فإن كرومر ترك الصحافة المصرية حرة لعدة أسباب : تخفيف الكبت . . واحتقار الصحافة ولأن معظم صحف ذلك العهد كانت فى أيد غير مصرية . . !

° ° °

هل هدأ شعب مصر؟

والجواب بالنفى . .

كان كرومر فى آخر سنواته لا يمشى إلا فى حراسة الحراب البريطانية . . وطلب زيادة قوات الاحتلال . . وتبعه الغضب المصرى والحقد الشعبى فى كل مكان . . وتدخل الأجانب فى مصر يطلبون من بريطانيا قنصلا شاباً أكثر مرونة . . !

أخطاء كثيرة ارتكبها كرومر بالنسبة لشعب مصر . .

وخطأ واحد ارتكبه بالنسبة للعبة الحكم فى مصر . .

. . جعل الخديو يقف مع الحركة الوطنية . . وإن كان عباس حلمى الثانى قد بقى بلا فاعلية على الإطلاق ضد كرومر . . أو مع الحركة الوطنية . . !

وكان من الضرورى أن يجى قنصل جديد يصحح خطأ كرومر ويفصل الخديو عن الحركة الوطنية . !

ولهذا جاء السير ألدون جورست إلى مصر عام ١٩٠٧ ليبقى فى منصبه ٤ سنوات . . وعندما نقل إلى لندن مريضاً بالسرطان . هرع خديو مصر إلى إنجلترا ليبقى بجوار فراش موت القنصل البريطانى . . وفاءً . . وشكراً . .

* * *

جاء جورست بأسلوب آخر . . هو الذى دارت فيه الحركة السياسية فى مصر زمناً طويلا . . أسلوب عرف باسم الوفاق والاتفاق مع الخديو . .

تنكر عباس حلمى الثانى للحركة الوطنية وللحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل وصرح للصحف البريطانية :

« إن المعتمد البريطانى – يقصد القنصل البريطانى المعتمد لدى مصر – لا يستطيع حكم مصر وحده . . وأنا مستعد للتعاون معه . . والاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر » .

ولم يكن جورست يقصد أن تعود السلطة الفعلية للخديو . . بل قصد « منحه » سلطة اختيار الوزراء . . ماداموا ينفذون رغبات الإنجليز . . ومادام الخديو نفسه لا يعارض السياسة البريطانية .

ويستهدف جورست تمزيق مصر كلها التى اتحدت ضد كرومر والإنجليز . .

حاول تمزيق الوحدة الوطنية بين الأقباط والمسلمين .

وحاول تفتيت الأحزاب . . فساعد على إنشاء خمسة أحزاب جديدة بينها حزب النبلاء . . !

وأراد تشجيع المعتدلين ضد الوطنيين الذين سماهم متطرفين ، وساعد على إنشاء مجلس شورى القوانين ليعطى ممثلى الأغنياء سلطة التشريع الاستشارية . . وليعطى الحركة النيابية شكلا ظاهريًا لا مضموناً حقيقيًا . .

وكان يحاول أن يبدو متواضعاً . . وأن يبين أن المصريين لا يكرهون القنصل البريطانى ، فكان يخرج من بيته بالقميص المفتوح . . ويقود سيارته بنفسه . .

ولم ينجح هذا كله . .

لم يكتسب جورست إلا صداقة الخديو وحده .

اتجه مصطفى كامل لتركيا .

وظهر الإجماع الشعبي . . وخضع أو استجاب له أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فرفضوا مشروع شركة قناة السويس - الذى يؤيده جورست بمد امتياز قناة السويس ٤٠ عاماً .

واضطر جورست حتى ينفذ الديمقراطية التى يدعيها أن يعلن أن قرار ممثلى الأمة بشأن مد امتياز قناة السويس سيكون نهائياً لا استشارياً .

ويلمع فى معارضة المشروع كثيرون . . بينهم محمد فريد الذى لا تنسى له بريطانيا ذلك فتحاكمه ويموت منفياً خارج مصر . . ومحمد طلعت حرب الاقتصادى المصرى الذى يفند بالأرقام والإحصاءات المشروع . . فيلاحقه العداء البريطانى فى أواخر أيامه . . ويبعد - بعد ذلك - عن بنك مصر الذى أنشأه . . !

وتقوم صحف وطنية متعددة تجمع كلمة الشعب ضد جورست ، فيوعز بإصدار قوانين مقيدة لحرية الصحافة . . ويكون بين الذين يحاكمون محمد فريد . . والشيخ عبد العزيز جاويش . . !

وإزاء فشل جورست تتدخل الجالية البريطانية فتطلب معتمداً بريطانياً يعيد عهد كرومر . . !

* * *

وهكذا جاء اللورد كتشنر إلى مصر عام ١٩١١ .

أقلته بارجة حربية إلى ميناء الإسكندرية .

وعندما قدم أوراق اعتماده للخديو . . ألقى خطبة طويلة قال فيها : « سأسهر على سعادة مصر » ! وقد اعتبر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى هذه الكلمات بأنها أشبه بخطبة العرش . !

وعرف بعض زعماء مصر الخطوط الأساسية فى مهمة كتشنر فأسرعوا إليه - فى لندن - قبل تعيينه يستميلونه إليهم . . ضد خصومهم السياسيين المصريين . .

. . ويفتتح كتشنر المشروعات فى مصر والسودان . .

ويلجأ للشدة بدلا من سياسة اللين التى اتبعها جورست . .

وإذا كان كرومر قد وجد فى شخص مصطفى باشا فهمى رئيساً للوزراء يتعاون مع الاحتلال . . فإن كتشنر وجد رئيس الوزراء - المثالى - بالنسبة للإنجليز - فى شخص محمد سعيد باشا الذى بقى فى منصبه ٤ سنوات كاملة .

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ يعين محمد سعيد باشا أيضاً رئيساً لوزارة إدارية . . تصرف

شئون الإدارة . ، ولا شأن لها بالسياسة أبدا . . !

وكان محمد سعيد يردد بأنه مدين برئاسة الوزارة لكتشنر . . لا للخديو . . وينفذ أوامر المعتمد البريطانى دون أن يحيط بها الخديو . . علماً . .

وأخيراً لجأ الخديو إلى حيلة ذكية . .

طلب من كتشنر أن يوافق على إعادة تعيين مصطفى فهمى باشا رئيسا للوزراء . . فلما وافق كتشنر تبين أن صحة مصطفى فهمى لا تساعده على العمل .

ولم يستطع كتشنر أن يطلب إعادة تعيين محمد سعيد . . فاتفق الخديو وكتشنر على حل وسط . . وهو تعيين ثالث رئيساً للوزراء . . فاختارا . . حسين رشدى باشا .

ويمضى كتشنر فى تنفيذ الفصل الأخير من روايته على المسرح المصرى فيقدم لمصر . . دستوراً شكلياً ليجرى فى ظله الصراع الحزبى . . والوزارى . . !

* * *

وتعلن الحرب العالمية الأولى وكتشنر خارج مصر فتسند إليه قيادة القوات البريطانية المحاربة .

. . ويكون عباس حلمى فى تركيا فيمنع من العودة لمصر . . ويتوقف المصريون عن دفع « الإتاوة » السنوية التى يقدمونها لتركيا – ٧٠٠ ألف جنيه – ويعين حسين كامل سلطاناً على مصر . . بعد الانفصال عن تركيا .

* * *

ويصبح السير مكماهون مندوباً سامياً لبريطانيا فى مصر . ولكن السلطة الحقيقية تكون فى يد الجنرال السيرجون ماكسويل قائد القوات البريطانية . . فإن بريطانيا تعلن الحماية البريطانية على مصر . .

ويعطل أمين الرافعى جريدته « الشعب » حتى لا ينشر قرار إعلان الحماية .

ويصدر وعد بلفور فى لندن بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود . . وكانت مصر تحت الحماية . . والعالم العربى تتنازعه سلطات الاحتلال . .

وينتهى دور مكماهون !

* * *

وكان لابد من اختيار مندوب سام يعرف مصر والسودان .

وتختار لندن رجلها . . الجنرال وينجت باشا . .

رجل خدم فى مصر من قبل . . ومعرفته واسعة بالسودان ، فقد اشترك فى فتحه وقتل الخليفة . . !

ويجلس على عرش مصر . بعد وفاة السلطان حسين كامل شقيقه أحمد فؤاد . الذى يتكلم الإيطالية . . ولا يحسن العربية . . ويقبل العرش مكان أبيه الخديو إسماعيل الذى عزله الإنجليز . . !

ويكون قبول أحمد فؤاد لعرش مصر . . فى ظل الحماية . . ويعبئ وينجت ١٣٥ ألف مصرى للعمل مع القوات البريطانية . .

ويقترح وينجت ضم مصر نهائياً إلى بريطانيا . . وتشتعل فى مصر ثورة عام ١٩١٩ . . ويعتقل وينجت سعد زغلول وزملاءه . . فإن الرجل الذى اختاره كرومر ليكون زعيماً للمعتدلين فى مصر . ويمضى جورست فى مساعدته . يصبح هذا الرجل نفسه سعد زغلول قائداً للثورة المصرية . . ومعبراً عنها . . ومتحدثاً باسمها بعد أن طرح ثوب الاعتدال . . إلى الأبد . .

وينتهى دور وينجت لأنه رجل لا يصلح لمواجهة شعب ثائر على الإنجليز كلهم هذه المرة . . وعلى الحماية . . ولا تقتصر الثورة على شخص المندوب السامى البريطانى . . فقد عرف الشعب طريقه أخيراً . . من خلال الثورة . .

* * *

ويستدعى الجنرال أللنبى من مؤتمر الصلح فى باريس ليكون مندوبا سامياً .

ويحمل أللنبى فى حقيبته عدة قرارات تعطيه سلطة سياسية وعسكرية مطلقة . وكذلك حق تشكيل المحاكم العسكرية . .

ولكن فى ماضى أللنبى مسائل أكبر .

إنه الرجل الذى قاد قبل ذلك الحملة فى فلسطين وسوريا . . ودخل القدس ليضع الحجر الأساسى للجامعة العبرية وبجواره حاييم وايزمان . . الذى يكون فيما بعد أول رئيس لدولة إسرائيل . .

ويبقى أللنبى فى مصر ست سنوات كاملة . . وعندما يغادرها عام ١٩٢٥ يكون السودان فى طريقه النهائى للانفصال عن مصر . ولعل هذه أهم نتائج عهد أللنبى . . !

وفى سنوات أللنبى يصدر تصريح ٢٨ فبراير بتحفظاته الشهيرة . ويصبح أحمد فؤاد ملكاً يحكم مصر . . وبذلك لم يعد المندوب السامى صاحب النفوذ الوحيد فى مصر . . بل شاركه الملك جزءاً من حقوقه . وإن بقيت القوة الحقيقية لرجل بريطانيا فى القاهرة . .

ويكون سعد أول رئيس للوزراء فى ذلك العهد الذى سمى عهد الاستقلال . . !

ويستقيل سعد من الوزارة بعد اغتيال السيردار السير لى ستاك حاكم السودان .

. . ولا يعود سعد للوزارة أبداً ! يمنعه الإنجليز والملك من ناحية . . واليأس البالغ من ناحية أخرى . .

إن اللورد لويد جورج الذى جاء بعد أللنبى طلب سفينة حربية بريطانية . . وصلت إلى ميناء الإسكندرية عندما فاز سعد بعدذلك فى الانتخابات . . وذلك حتى لا يتولى سعد رئاسة الوزراء فاكتفى برئاسة مجلس النواب . .

* * *

ولقد فرق أللنبى حزب الوفد . . والحركة الوطنية .

وجعل الزعماء المصريين يتصارعون طلباً لمعاهدة جديدة مع بريطانيا . . وطلباً للحكم فى ظل دستور - كان من البداية - ناقصاً . .

ومع ذلك قيل إن أهم ما حصل عليه المصريون هو الدستور .

أما التطبيق فشىء آخر شغلت به الحركة الوطنية بعد أللنبى .

ويحل محل أللنبى مؤقتاً نيفيل هندرسون ، الرجل الذى يتولى محاكمة وإعدام المتهمين بقتل السردار !

ووصل اللورد لويد جورج . . ليقيم فى مصر ٤ سنوات !

ومنذ اللحظة الأولى يفهم لويد جورج حقيقة الموقف فى مصر . . حتى قالوا إنه يماثل كرومر . . ولكن أسلوبه كان مختلفاً ليناسب المرحلة التى عاشها . .

وفى مذكرات لويد جورج - وهو ثانى مندوب سام يكتب مذكراته بعد كرومر قال :

« الحركة الوطنية المصرية تريد تحرير البلاد من الاحتلال لتتفرغ للثورة على الملك . . وإذا استطاع الوفد السيطرة على الجيش فلن يتردد فى عزل الملك » .

ولقد فشل وينجت فى ضم مصر لبريطانيا .

وفشل أللنبى فى إخماد جذوة الثورة .

وأصبح على لويد جورج أن يعرقل تحرير مصر من الإنجليز .

وحدد المندوب السامى أسلوبه .

إنه يحاول تحقيق مصالح بريطانيا . . بالتفاهم مع مصر !

وهو لا يتدخل فى السياسة المصرية إلا فى المسائل الجوهرية . . ولكنه يرى بقاء الإنجليز فى الوزارات الخمس الرئيسية . . وبينها وزارة العدل !

ولقد « سمح » اللورد أللنبى والملك - لظروف كثيرة - لسعد زغلول بأن يتولى الوزارة ١٠ شهور . . ولكن اللورد لويد جورج والملك لم « يسمحا » للنحاس بأن يحكم سوى ٣ شهور !

. . ومع ذلك فإن اللورد لويد جورج تدخل ضد أحمد فؤاد ليطرد رئيس ديوانه بالنيابة حسن نشأت باشا . . وذلك بناء على طلب رئيس وزراء مصر أحمد زيور باشا . .

. . قال زيور للورد لويد :

– شكوت للملك من حسن نشأت باشا فلم يتصرف . .

ويتدخل اللورد ويطرد نشأت . . وسنجد فى أرشيف وزارة الخارجية البريطانية وثائق تثبت ذلك .

* * *

وفى عهد لويد نجد أزمتين أخريين . . ضخمتين . .

وفى كل أزمة يوجه اللورد إنذاراً . . لمصر . .

الأزمة الأولى مع عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء .

والأزمة الثانية مع مصطفى النحاس باشا عندما تولى الوزارة بعد ثروت .

* * *

والحديث عن الأزمة الأولى أنقله عن شهادة مصطفى النحاس من محكمة الجنايات فى أثناء قضية اغتيال أمين عثمان .

. . كان عبد الخالق ثروت باشا يرأس وزارة ائتلافية تضم الوفديين . . وكان النحاس باشا رئيساً للوفد ووكيلا لمجلس النواب والأغلبية النيابية للوفد .

. . . وسافر ثروت إلى لندن ووصل مع أوستن تشمبرلين وزير خارجية بريطانيا إلى مشروع معاهدة أخفاها عن أعضاء وزارته .

. . وهنا أنقل من شهادة النحاس باشا .

. . قال لى الوفديون :

– لابد أن تطالب ثروت بمشروع المعاهدة .

فقال لى : .

– لا أقدر لأنى متفاهم مع تشمبرلين على أن نجتهد لنصل إلى شىء . . ويبقى سراً . . إلى أن يتم . . فإذا وصلنا نعلنه . . وإذا لم نصل نعتبره كأن لم يكن . .

* * *

وكثر علىّ الإلحاح من الوفديين والدستوريين فقلت لثروت باشا :

– لابد أن أعرف إذ ربما أرشدك إلى أشياء يمكن أن تحصل عليها فينجح المشروع . . وربما لا يوافق ما نتفق عليه ، لا أنا ولا إخوانى الدستوريين المشتركين فى الوزارة .

- قال ثروت :

- سأعطيه لك . .

ثم طلبته فسلمه لى وقال :

- هذا سر بينى وبينك لا تعرضه على أحد مطلقاً .

وحبست نفسى فى الأقصر ، وظللت أدرسه فوجدته « قطران » يبدأ بالاحتلال . فقلت :

- هذا لا ينفع .

ولم أذكر لثروت ذلك ونحن فى الرحلة ، وقلت عندما نعود سأخبر عدلى باشا لأنه صديقه .

. . رجعت من الأقصر ، والغيظ يملأ قلبى لما حدث لأن المشروع يضر البلد ، وهو احتلال رسمى .

ولما عدت ناديت عدلى باشا . وقلت له :

- سأعرض عليه المشروع .

فلم يوافق عليه .

قلت له :

- نتفق مع ثروت على أن يكتب رداً للإنجليز يبلغهم فيه أنه ، لا هو ، ولا البلد ، تقبل المشروع .

فتضايق ثروت واستقال .

قلت له :

- الاستقالة لا تنفع وقبل تقديمها يجب أن ترد لأنك قبلته وأنت رئيس للوزراء .

وألححت عليه أن يكتب . . فكتب .

* * *

وعهد إلى النحاس بتأليف وزارته الأولى يوم ١٦ مارس ١٩٢٨ .

ودخل الوزارة يومها وزراء جدد بينهم مكرم عبيد سكرتير الوفد .

وتنشأ أزمة ضخمة بين النحاس والمندوب السامى بسبب مشروع قانون اسمه « قانون الاجتماعات العامة » وضعته وزارة ثروت . . وهو قانون فهم منه المندوب السامى أنه يسمح بالمظاهرات . . واعتبره تهديداً لأرواح الأجانب . .

وكان السبب الحقيقى للأزمة عبارة سقطت من مشروع القانون الذى أقره مجلس النواب .

. . طلب اللورد جورج لويد عدم إصدار المشروع وبعث بإنذار إلى النحاس :

« أطلب إعطائى تأكيداً كتابياً قاطعاً بأنه لن يستمر فى نظر المشروع وإذا لم يصلنى هذا التأكيد قبل السابعة من مساء ٢ مايو فإن حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا تعد نفسها حرة فى أن تقوم بأى عمل ترى الموقف يستدعيه » .

ويعطى المندوب السامى النحاس مهلة – ٤٨ ساعة – فيؤجل النحاس المشروع ، ويرد كتابة بأن الحكومة المصرية تدفعها الرغبة الصادقة فى التفاهم والمسالمة .

وفى شهادة النحاس قال :

« أبلغت الملك . وجاءت السفن الحربية البريطانية إلى الإسكندرية فقلت إن هذا العمل يناقش . . وأبلغ الإنجليز ألا حق لهم فى ذلك » .

واتفقت مع الملك على أن أبحث الأمر مع كين بويد مستشار السفارة وجمعت مجلس الشيوخ والنواب على هيئة مؤتمر وقلت لهم :

رأيى أن نتفادى الأزمة .

وكان رأى النواب والشيوخ أن يصدر المشروع فوراً .

وعرضت تأجيل نظر القانون إلى ما بعد الدورة البرلمانية فوافقوا . .

أبلغت الملك .

توليت الأمر .

ووافق الإنجليز .

ثم جاءنى توفيق نسيم باشا رئيس الديوان الملكى وقال لى :

إن السفير اجتهد حتى وصل إلى هذا الحل .

قلت له :

– قل للسفير إن الباشا . أى النحاس – يشكرك لهذا الحل الموفق .

قبلنى توفيق نسيم وعانقنى وقال لى :

– إنى أقبلك من جلالة الملك .

قلت له :

– سأذهب إلى إنجلترا . وأبلغهم أن المسألة لا يصح أن تكون بهذه الطريقة .

* * *

ولكن النحاس لم يذهب إلى إنجلترا . .

أقاله الملك فؤاد بعد أقل من شهرين . . وكان كل عمر وزارته ٣ شهور .

وكانت وزارة النحاس هى أول وزارة تقال عقب صدور الدستور .

وجاء حزب العمال البريطانى إلى الحكم فقرر تغيير لويد جورج الذى عينه المحافظون . . والذى اختاروه وزيراً فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

قال العمال وهم يستدعون اللورد لويد جورج إلى لندن :

- إننا نريد سياسة أكثر تحرراً فى مصر .

وكانت البداية عدم اختيار لورد ليتولى المنصب . . بل وصل السير برسى لورين .

ولكن السير برسى لورين لم يحقق شيئاً فى مصر . . لأن خطته تركزت فى كلمة واحدة . . الحياد . . !

بقى برسى لورين على الحياد فى الصراع بين الملك والوفد . . بعد أن فشل الإنجليز فى الوصول إلى تفاهم مع الوفد .

وخلال سنوات لورين فى مصر من ١٩٢٩ إلى سنة ٣٣ حكم الملك أحمد فؤاد وحده من خلال وزارات وبلا برلمان حيناً . . أو ببرلمانات جاءت بانتخابات مزيفة . وكان أبرز رؤساء وزارات تلك الفترة محمد محمود صاحب اليد الحديدية ، وإسماعيل صدقى الذى أصدر دستوراً جديداً يساعده على البقاء فى الحكم .

ولم يتول النحاس رئاسة الوزارة فى هذه الفترة سوى ستة شهور فحسب .

وعندما غادر برسى لورين مصر كانت وزارة عبد الفتاح يحيى تتولى الحكم . . وهى وزارة أقل ما يقال فيها ما أطلقه عليها المؤرخون من أنها كانت وزارة بغيضة إلى شعب مصر . . !

وكان لورين يؤيد صدقى ومحمد محمود . . أو على الأقل لم يعترض على تنكيلها بشعب مصر .

ونقل لورين من القاهرة فى أغسطس عام ١٩٣٣ . . وجاء السير مايلز لامبسون أو كيلرن إلى القاهرة فى يناير من العام التالى - ١٩٣٤ - وفى أغسطس من نفس العام إلى عام ١٩٣٤ حصل لامبسون على إجازة طويلة خمسة أشهر - من أغسطس ٣٤ حتى يناير ١٩٣٥ - ليتزوج فى لندن .

وخلال هذه الشهور الخمس تولى السير موريس بيترسون منصب المندوب السامى البريطانى بالنيابة فى مصر .

وقد أصبح بيترسون بعد ذلك وكيلا مساعداً لوزارة الخارجية البريطانية فى لندن .

وبين الوثائق الهامة التى عثرت عليها من مركز الوثائق العامة . هذه الوثيقة التى كتبها بيترسون وقدمها إلى أنتونى إيدن وزير الخارجية البريطانى فى ٢٧ يناير ١٩٤٢ .

إن هذه الوثيقة . . أو المذكرة . . تكشف سر اللعبة الوزارية فى مصر .

يقول موريس بيترسون بالحرف الواحد :

« طالما ظلت مراكز النفوذ الثلاثة التى تحدد اتجاه الحوادث فى مصر قائمة ، وهى حسب ترتيب أهميتها . نحن والملك فاروق والرأى العام المصرى . فإن التغييرات فى السياسة الداخلية فى مصر تتحرك فى دائرة منظمة تماما » .

ولا أعتقد أن المعاهدة أثرت على ذلك بأى شكل من الأشكال ، أو أن أى شىء سيؤثر فيها ، ما لم يكن هذا الشىء هو اختفاء أحد العوامل الثلاثة الرئيسية التى ذكرتها سالفاً .

وهناك ٣ حركات متعاقبة ومتتالية . ومحاولة تحديد أيها يأتى أولا أشبه بمحاولة تحديد هل الدجاجة أسبق أم البيضة . ولكن النتيجة لا تختلف .

وهذه الحركات هى :

١ – رئيس وزراء يكون مقبولا لدى الملك ولدينا .

ومن شأن تأييدنا لرئيس الوزراء أن يؤدى – تدريجاً ومع الوقت – إلى أن يفقد رئيس الوزراء تأييد القصر فإن الملك يصبح غيوراً من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن رئيس الوزراء يميل إلى الاعتماد علينا فى المدى البعيد ، ويعامل القصر بكبرياء .

النتيجة : « يذبح » أو يسقط الملك رئيس الوزراء فى بعض المسائل التى يحس أننا لن نكون قادرين على التدخل فيها ، أو التى قد نشعر أن الملك على حق فيها .

نحس نحن بالغضب . ونتخذ موقفاً يقوم على أساس أنه مادام الملك قد أسقط الرجل الذى يتمتع بثقتنا فإن على جلالته أن يخرج من المأزق بأسرع ما يمكن .

ويعقب ذلك التغيير التالى :

٢ – رئيس وزراء يكون رجل القصر فقط .

النتيجة : يتدخل القصر فى كل مرحلة من مراحل حكم البلاد . ينمو السخط الشعبى . ويصبح واضحاً أنه يمكن أن تحدث ثورة لولا وجود قواتنا ، وعندئذ نتحرك ببطء وتردد إلى تغيير آخر يترك الملك غاضباً ومنعزلاً . وهذا التغيير يؤدى إلى :

٣ حكومة شعبية ، سواء كانت وفدية ، أو على الأقل على علاقات طيبة بالوفد .

النتيجة : تصبح مصالح ونفوذ بريطانيا مهددة فى كل خطوة . ونشعر بالإزعاج ، وننجأ إلى المعاهدة بل نشدد عليها . ونصر على تغيير الحكومة ، الأمر الذى نضطر إلى طلب تعاون الملك فيه ، وإلى تحقيق رغباته بدرجة ما .

ويعود بنا هذا إلى النقطة رقم ١ .

طالما استمرت العوامل الثلاثة قائمة ، فإن الشىء الوحيد الذى نستطيع أن نفعله – ولكنه

شيء هام للغاية -- هو أن نضمن أن يكون توقيت التغييرات لمصلحتنا .

ومن الأمور المسلية أن نضيف أن أى ممثل لبريطانيا يتولى تدبير التغيير رقم ٣ يكتسب شعبية محلية مؤكدة وسهلة بلا شك . وهذا هو ما حدث لى عام ٣٤ عندما توليت إخراج حكومة عبد الفتاح يحيى التى كانت حكومة القصر وإحلال حكومة توفيق نسيم – وكانت حكومة شعبية نسبياً .

والشعبية التى تكتسب فى مثل هذه الظروف يمكن أن تسبب حرجاً . وهذه حقيقة ووجهت بها منذ ست سنوات عندما كنت أجلس على مائدتى . وعلى مسمع من عدد من الشخصيات الإسبانية البارزة التى تعد كلمة « ليبرالى » بمثابة لعنة بالنسبة لهم . قال هذا الدبلوماسى « إننى رجل لن ينساه مطلقا جميع هؤلاء الذين فى أعماقهم اتجاهات ليبرالية فى مصر » .

ويؤشر إيدن وزير الخارجية على هذه المذكرة قائلا :

« طريفة جداً » .

وأرى أنها حقيقية ويجب أن نعمل على ألا يتحد القصر والشعب ضدنا . .

وهذه الكلمات المختصرة تحدد ببساطة شعار بريطانيا . . فرق . . تسد . . فى مصر !

إن ما يهم بريطانيا من لعبة تغيير الوزارات هو أن يكون توقيت التغيير لصالح بريطانيا فحسب !

وهذه الوثيقة تبين أن بيترسون عندما كان مندوباً سامياً بالنيابة . . كانت له صلاحيات المندوب السامى وسلطاته ومنها – بطبيعة الحال – التدخل لإقالة وتعيين الوزارات فى مصر !

بل إن بيترسون – برغم أنه أقصر المندوبين الساميين عمراً فى مصر فإنه حاول خلال الشهور الخمسة عزل الملك نفسه كما سنجد فى إحدى الوثائق .

إن فى المذكرة السابقة اعترافاً صريحاً بأن بيترسون تدخل لدى الملك أحمد فؤاد لتغيير بقايا . . عهد إسماعيل صدقى . . أعنى بذلك وزارة عبد الفتاح يحيى باشا .

وكان عبد الفتاح يحيى باشا رئيساً لوزراء مصر . . اختير ليتولى منصب رئيس الوزراء وهو فى أوربا . . دون أن يستشيره أحد !

وظل ١٤ شهراً رئيساً لوزراء مصر . . يخضع للقصر فى كل أمر . حتى أنه أصدر قانوناً يقضى بأن يؤدى الوزراء عند تعيينهم يميناً بالولاء للملك . . قبل الولاء للوطن !

وتدخل موريس بيترسون لدى الملك أحمد فؤاد ليأمر بشغل منصب رئيس الديوان الملكى . واختار لذلك رجل بريطانيا القديم أحمد زيور باشا الذى تولى الحكم بعد وزارة

سعد الأولى والأخيرة !

وتدخل المندوب السامى ليطلب – كما تقول الوثيقة السابقة – عزل عبد الفتاح يحيى – أى بقايا عهد إسماعيل صدقى – وتعيين توفيق نسيم رئيساً لوزراء مصر.

واعترف عبد الفتاح يحيى نفسه بالتدخل البريطانى فقال فى خطاب استقالته : « فى الشهر الأخير . . والمصريون جميعاً يضرعون إلى الله أن يمّ لجلالتكم أسباب الصحة ، أبلغت رغبات من الحكومة البريطانية لا يسعنى قبولها دون التفريط فى حقوق البلاد .

والآن وقد تماثلت صحة جلالتكم للشفاء أرفع استقالتى » . .

يشير رئيس الوزراء بذلك إلى أن الإنجليز رغبوا فى عزل الملك . والجدير بالذكر أنهم قرروا ذلك . . وأن رئيس الوزراء قبل ذلك ولم يستقل . . ولكن شفاء الملك حال دون التنفيذ . . وأن الملك قبل أن يتسلم كتاب استقالة من رئيس الوزراء فيه هذا الاعتراف الصريح بمحاولة الإنجليز عزله دون أن يحتج !

* * *

ونعود إلى عهد برسى لورين الذى ترك الملك أحمد فؤاد يتصرف على هواه .

بعد برسى لورين جاء السير مايلز لامبسون ليبقى سبعة شهور فى مصر ثم يسافر فى إجازة خمسة شهور تولى موريس بيترسون خلالها تصريف الأمور .

وعاد لامبسون ليبقى فى القاهرة ١١ عاماً أخرى . . ومدة لامبسون أو كيلرن فى مصر استمرت ١٢ سنة .

وكان فى لندن خلال سنوات الحرب وكيلا مساعداً لوزارة الخارجية موريس بيترسون ! ولعبة الكراسى الموسيقية حول مصر . . كانت غريبة !

ولقد وصل لامبسون إلى مصر فى ظروف تتشابه إلى حد كبير مع ظروف وصول الدون جورست إلى القاهرة .

كان على لامبسون أو كيلرن أن يتولى توجيه ولى العهد فاروق أو الملك الشاب فيما بعد . . تماماً كما فعل جورست مع عباس حلمى الثانى وكاد التاريخ أن يتكرر بحذافيره .

جورست بدأ عهده بسياسة الوفاق مع الخديو لضرب الحركة الوطنية .

ولامبسون بدأ عهده بسياسة الوفاق مع فاروق ، وإن كان لامبسون قد رغب فى أن يمتد الوفاق أيضاً إلى الحركة الوطنية . . أى الوفد . بل إن الوفد كان هدفاً أساسياً لكيلرن .

وفى عهد عباس حلمى الثانى قامت الحرب العالمية الأولى . وعزل عباس ومنع من العودة إلى مصر .

وفى عهد فاروق قامت الحرب الثانية وكاد فاروق أن يعزل من مصر ، فقد اتهم عباس حلمى الثانى بالميل إلى تركيا ضد بريطانيا ، واتهم فاروق بالميل إلى ألمانيا ضد بريطانيا .

تاريخ متشابه . . وتتكرر فيه الفصول !